الجُزُر الضّائِعَة

قِصَّة للنّاشِـئَة

الجُزُر الضّائِعَة

قِصَّة للنّاشِئَة

تأليف: د. محمدالدرويش
رسم: جوزيف قاعي

© حقوق النشر والتوزيع محفوظة

دار أصالة ش.م.م. - طبعة ثانية 2017
ISBN: 978-614-442-050-8
تلفون: 833217 1 961+
ص.ب.: 11/3434
www.asala-publishers.com
infos@asala-publishers.com

كانَ نَهارًا رَبيعِيًّا مُشْمِسًا، عِنْدَما ذَهَبَ «رامِز» بِرِفْقَةِ أُخْتِهِ «نَجْلاء» إلى مَدينَةِ الأَلْعاب، وهُناكَ الْتَقى أَصْدِقاءَهُ «نَديم»، «مُعين»، و«سالِم».

تَوَقَّفَ الأَصْدِقاءُ أَمامَ لُعْبَة، قَرَأَ «رامِز» ما كُتِبَ على اللّافِتَةِ المُعَلَّقَةِ قُرْبَها، فَقال: «آلَةُ الزَّمَن، اخْتِراعٌ عَجيبٌ يُتيحُ لَكَ السَّفَرَ عَبْرَ الزَّمَنِ إلى الماضي السَّحيق. أُدْخُلْ وجَرِّب!». نَظَرَ «رامِز» إلى أَصْدِقائِه، وقال: «ما رأيُكُم؟ هَيّا نُجَرِّب».

وافَقَ الأَصْدِقاء، ودَخَلوا آلَةَ الزَّمَن، وهِيَ غُرْفَةٌ صَغيرَةٌ فيها كُرْسِيٌّ واحِدٌ وشاشَةٌ كَبيرَةٌ ومَجْموعَةٌ مِنَ الأَزْرار.

جَلَسَ «رامِز» عَلى الكُرْسِيّ، وقال: «أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذا كُرْسِيُّ القائِد!».

أَمامَ الكُرْسِيّ، زِرٌّ أَحْمَرُ كَبيرٌ كُتِبَ عَلَيْه: «اِنْطَلِق!» ضَغَطَ «رامِز» عَلى الزِّرّ، فَصَدَرَتْ أَصْواتٌ غَريبَةٌ، ثُمَّ سادَ الصَّمْت.

قالَ «نَديم» ساخِرًا: «حاوِلْ مَرَّةً أُخْرى أَيُّها القائِد». ضَغَطَ «رامِز» مُجَدَّدًا عَلى الزِّرّ، فَصَدَرَتْ أَصْواتٌ غَريبَةٌ، وظَهَرَتْ أَرْقامٌ عَلى الشّاشَةِ الكَبيرَة، ثُمَّ هَدَرَتِ الآلَةُ كالطّائِرَةِ عِنْدَ الإِقْلاع.

بَعْدَ ثَوانٍ، صَدَرَ صَوْتٌ مِنَ الدَلَةِ يَقول: «أهْلًا بِكُم في جَزيرَةِ النُّمور».
تَوَقَّفَ ضَجيجُ الدَلَة، ونَظَرَ الأصْدِقاءُ إلى بَعْضِهِم بِاسْتِغْرابٍ. وفَجْأةً، فُتِحَ بابُ الدَلَة، واقْتَرَبَ الأصْدِقاء، فَشاهَدوا مَنْظَرًا عَجيبًا.

كانَتِ الأشْجارُ تُحيطُ بِهِم مِنْ كُلِّ جانِبٍ. قالَ «نَديم» خائِفًا: «يَبْدو أنَّنا في غابَةِ الوُحوشِ الكاسِرَة!*». خافَتْ «نَجْلاء» وأخَذَتْ تَبْكي. اقْتَرَبَ «رامِز» مِنْ أُخْتِه، وقال: «لا تَخافي، إنَّها مُجَرَّدُ لُعْبَةٍ». وهُنا، اقْتَرَحَ «مُعين» أنْ يَخْرُجوا مِنَ الدَلَةِ لِمَعْرِفَةِ المَكانِ الَّذي وَصَلوا إلَيْه. تَرَجَّلَ الأصْدِقاءُ مِنَ الدَلَةِ العَجيبَة، وقالَ «رامِز»: «يَبْدو أنَّ الدَلَةَ قَدْ أقْلَعَتْ بِنا إلى زَمَنٍ سَحيقٍ أو إلى مَكانٍ آخَر، يَجِبُ أنْ نَعود. هَيّا بِنا نَصْعَدْ إلى الدَلَة».

في هَذِهِ اللَّحْظَة، ظَهَرَ رِجالٌ غُرَباءُ يَحْمِلونَ رِماحًا حادَّةَ النَّصْل*، ويَلْبَسونَ قِطَعًا جِلْدِيَّةً.

تَراجَعَ الأصْدِقاءُ إلى الوَراءِ خَوْفًا، وقالَ «رامِز»: «مَنْ أنْتُم؟».

ضَحِكَ أحَدُ الرِّجال، وقال: «نَحْنُ رِجالُ جَزيرَةِ النُّمور، مَنْ أنْتُم؟».

قالَ «سالِم»: «نَحْنُ أصْدِقاء، وكُنّا في مَدينَةِ الأَلْعاب، و...»، فَقاطَعَهُ أحَدُ الرِّجالِ قائِلًا: «مَدينَةُ الأَلْعاب؟ لا بُدَّ أنَّها حيلَةٌ جَديدَةٌ مِنْ سُكّانِ جَزيرَةِ الثَّعالِب!».

*الكاسِرَة: الطُّيورُ الَّتي تَكْسِرُ ما تَصيدُه.

*نَصْل: حَديدَةُ السَّهْمِ والرُّمْحِ والسَّيفِ والسِّكّين.

قالَ «سالِم» مُسْتَغْرِبًا: «جَزيرَةُ الثَّعالِب؟! لَسْنا مِنْ جَزيرَةِ الثَّعالِب».

قالَ أحَدُ الرِّجال: «أنا لا أفْهَمُ شَيْئًا! يَجِبُ أنْ يَراكُم الزَّعيم، هَيّا بِنا».

وَصَلَ الأصْدِقاءُ إلى الزَّعيمِ الَّذي كانَ يَلْبَسُ قِناعًا يُشْبِهُ وَجْهَ النَّمِر. تَحَدَّثَ أحَدُ الرِّجالِ إلى الزَّعيم، وقال: «لَقَدْ وَجَدْنا هَؤلاء الغُرَباءَ في الغابَةِ الشَّمالِيَّة، لَقَدْ نَزَلوا مِنْ شَيْءٍ غَريبٍ، إنّي أشُكُّ بِأمْرِهِم!».

نَظَرَ الزَّعيمُ إلى الأصْدِقاء، وقال: «حَذارِ أنْ تَخْدَعونا، لَقَد اعْتَدْنا عَلى مَكائِدِ* جَزيرَةِ الثَّعالِب».

قالَ «رامِز»: «نَحْنُ لا نَخْدَعُ أحَدًا أيُّها الزَّعيم، لَقَدْ رَكِبْنا آلَةَ الزَّمَنِ وحَطَّتْ بِنا في جَزيرَتِكُم، هَذِهِ هِيَ الحِكايَةُ كُلُّها».

اسْتَغْرَبَ الزَّعيمُ وتَساءَل: «آلَةُ الزَّمَن؟!».

قالَ «سالِم»: «نَعَم أيُّها الزَّعيم، إنَّها آلَةٌ تُسافِرُ عَبْرَ الزَّمَن».

نَظَرَ الزَّعيمُ إلى مُعاوِنِه، وقال: «أعْتَقِدُ أنَّهُم لَيْسوا مِنْ جَزيرَةِ الثَّعالِب، لَقَد اعْتَدْنا أنْ يَعْتَدوا عَلَيْنا بِسُفُنِهِم، ولا أعْتَقِدُ أنَّهُم أذْكِياءُ لِهَذِهِ الدَّرَجَة، ولَكِنْ عَلَيْنا أنْ نَحْتاطَ لِلأمْر».

خاطَبَ الزَّعيمُ الأصْدِقاء: «سَتَبْقونَ في جَزيرَتِنا حَتّى نَتَبَيَّنَ الأمْر. أيُّها الحارِس، خُذْهُم إلى خَيْمَةِ الضُّيوف».

*مَكائِد: م. مَكيدَة: مُؤامَرَة.

ذَهَبَ الأصْدِقاءُ إلى خَيْمَةٍ وَاسِعَةٍ فيها وَسائِدُ جِلْدِيَّة، وجَلَسوا مَعَ الحارِس، وأدْرَكوا أنَّهُم سافَروا عَبْرَ الزَّمَنِ إلى جَزيرَةِ النُّمور.

تَعَرَّفَ الأطْفالُ إلى السُّكّانِ الَّذين رَحَّبوا بِهِم. كانَتْ أجْسادُ السُّكّانِ ضَخْمَةً مُتَناسِقَةَ العَضَلات، لَكِنَّهُم كانوا طَيِّبينَ وذَوي أخْلاقٍ عالِيَةٍ.

سَأَلَ الأطْفال: «ما سَبَبُ تَقْسيمِ الجُزُرِ بِهَذا الشَّكْلِ الغَريب؟».

«نَحْنُ لا نَعْرِفُ السَّبَب. وُلِدْنا عَلى أرْضِ هَذِهِ الجَزيرَةِ ونَمْتازُ بِالشَّجاعَة، ولا نَخافُ أحَدًا مِنَ الجُزُرِ الأُخْرى. ونَحْنُ نَتَعَرَّضُ بَيْنَ الفَيْنَةِ* والأُخْرى لِغَزْوٍ مِنْ سُكّانِ إحْدى الجُزُرِ سَيِّئَةِ السُّمْعَة، لَكِنَّهُم يَفْشَلونَ دائِمًا»، أجابَ السُّكّان.

في هَذِهِ الأثْناء، صَرَخَ المُراقِبُ في أعْلى الشَّجَرَة: «اِنْتَبِهوا... سُفُنٌ قادِمَةٌ مِنْ جَزيرَةِ الثَّعالِب.

ذَهَبَ الجَميعُ مَعَ الزَّعيمِ إلى الشّاطِئِ لِاسْتِطْلاعِ الأمْر. تَرَجَّلَ طاقَمُ سَفينَةِ الثَّعالِبِ بِقِيادَةِ زَعيمِهِم الَّذي قال: «مَرْحَبًا، نُريدُ زِيارَتَكُم، رأيْنا شَيْئًا غَريبًا يَحُطُّ في جَزيرَتِكُم».

*الفَيْنَة: السَّاعَة.

« إنَّهُم أطْفالٌ مُغامِرون، وقَدْ أتوا لِزيارَتِنا»، قالَ زعيمُ النُّمور.

– نَوَدُّ التَّعَرُّفَ إلَيْهِم، لَقَدْ أحْضَرْنا ثِمارًا لَذيذَةً مِنْ جَزيرَتِنا.

– ثِمارٌ لَذيذَةٌ؟! لَكِنَّنا نَعْرِفُ أنَّ أشْجارَ جَزيرَتِكُم قَدْ يَبِسَتْ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ!

– بَقِيَتْ شَجَرَةٌ واحِدَةٌ فَقَط. أرْجو أنْ تُجَرِّبوا ثِمارَها اللَّذيذَة.

– حَسنًا، تَفَضَّلوا.

– إنَّها ثِمارٌ سامَّةٌ!

تَراجَعَ الأطْفالُ إلى الخَلْف، وتَقَدَّمَ زَعيمُ النُّمور، ودَسَّ ثَمَرَةً في فَمِ أحَدِ رِجالِ سَفينَةِ الثَّعالِب، لَكِنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْصُل.

اعْتَذَرَ زَعيمُ النُّمورِ قائِلًا: «اعْذُروني، لا بُدَّ أنْ نَتأكَّدَ لِأنَّ سُمْعَةَ جَزيرَتِكُم سَيِّئَةٌ».

– هَلْ مِنَ المَعْقولِ أنْ نُحْضِرَ لَكُم ثِمارًا سامَّةً أيُّها الزَّعيمُ الشُّجاع؟!

– أُكَرِّرُ أسَفي، تَفَضَّلوا.

وهَكَذا، رَحَّبَ زَعيمُ النُّمورِ بِالزّائِرين، ثُمَّ قال: «سَنأكُلُ هَذِهِ الثِّمارَ حَوْلَ النّيرانِ عَلى العَشاء».

تَعَرَّفَ الأَطْفالُ إلى طاقَمِ سَفينَةِ الثَّعالِب، وتَساءَلَ «مُعين»: «لِمَ يَدْعونَها بِهَذا الاسْم؟».

« يَتَّهِمونَنا بِالاحْتِيالِ والكَذِب، ونَحْنُ لا نَفْعَلُ ذَلِك، نُريدُ أنْ نُثْبِتَ لَكُم أنَّ هَذِهِ التَّسْمِيةَ لا تَنْطَبِقُ عَلَينا»، قالَ زَعيمُ الثَّعالِب.

« لَكِن اعْذُرْني، التّاريخُ يُثْبِتُ عَكْسَ ذَلِك»، رَدَّ زَعيمُ النُّمور.

– هَذا كانَ قَديمًا. أمّا الآن، فَقَدْ تَغَيَّرَتْ طِباعُنا، وجِئْنا لِنَكْتَسِبَ الشَّجاعَةَ مِنْكُم.

– ماذا؟ تَكْتَسِبونَ الشَّجاعَةَ مِنّا؟ حَقًّا إنَّهُ أمْرٌ غَريبٌ!

قالَ «نَديم»: «هَلْ يُمْكِنُنا أنْ نُدَرِّبَهُم عَلى القِتالِ والجُرْأة؟

« دَرِّبوهُم، لَكِنْ اِحْذَروا مَكْرَهُم»، قالَ زَعيمُ النُّمور.

« هَلْ تَسْمَحونَ لَنا بِدَعْوَةِ الأَطْفالِ لِزيارَتِنا وتَدْريبِنا؟»، سَألَ زَعيمُ الثَّعالِب.

– عَلى الرَّحْبِ والسِّعَة.

رافَقَ الأَطْفالُ سُكّانَ جَزيرَةِ الثَّعالِب، وأبْحَروا حَتّى وَصَلوا إلى الجَزيرَةِ الَّتي كانَتْ تَعِجُّ بِالفَوْضى والرّائِحَةِ الكَريهَة.

رَحَّبَ زَعيمُ الجَزيرَةِ بِالزّائِرينَ الصِّغار، وقال: «أهْلًا بِالأطْفالِ المُغامِرين، ألا تَعْتَقِدونَ أنَّ المَكْرَ والحيلَةَ أهَمُّ مِنَ الشَّجاعَة؟!».

اسْتَغْرَبَ الأطْفالُ كَلامَ الزَّعيم، وقالَ أحَدُهُم: «لَقَدْ جِئْنا لِزيارَتِكُم وتَعْليمِكُم فُنونَ القِتالِ والشَّجاعَة...».

وهُنا تَحَلَّقَتْ مَجْموعَةٌ مِنْ سُكّانِ الجَزيرَةِ حَوْلَ الأطْفالِ وفي أيْديهِم أسْلِحَةٌ غَريبَةٌ وَسْطَ قَهْقَهَةِ الزَّعيم: «هاهاها... ماذا؟! تُعَلِّمونَنا فُنونَ القِتال؟! هَيّا، خُذوهُم إلى السِّجْنِ المُعَلَّق».

قالَ «مُعين» بِحُزنٍ: «لَقَد انْتَهَتْ مُغامَرَتُنا في بِدايَتِها!».

« لا تَقْلَق، سَنَجِدُ حَلًّا لِهَذا المَأْزِق»، قالَ «رامِز».

« لا تَنْسوا أنَّهُم ماكِرون»، رَدَّ «سالِم».

صَرَخَ «رامِز» بِغَضَبٍ: «ماذا تُريدونَ مِنّا؟ هَلْ هَذِهِ آدابُ الزِّيارَة؟ أمْس أكَلْنا مِنْ ثِمارِ جَزيرَتِكُم!».

وهُنا قاطَعَهُ الزَّعيم: «أُصْمُت! لَمْ تأكُلوا مِنْ ثِمارِ جَزيرَتِنا، لَقَدْ سَرَقْناها مِنْ جَزيرَةِ السَّلاحِف!».

قالَ نائِبُ الزَّعيم: «سَتَعْرِفونَ الآنَ لِماذا أتَيْنا بِكُم إلى هُنا. . أُنْظُروا إلى جَزيرَتِنا، لَقَدْ ماتَتْ أشْجارُها، والأرْضُ قاحِلَةٌ، نَعْتَمِدُ عَلى السَّرِقَةِ في تَلْبِيَةِ حاجاتِنا. نُريدُ أنْ نُبادِلَكُم بِمَجْموعَةٍ مِنْ حاجاتِنا الضَّرورِيَّة، نَحْنُ لا نُرْهِقُ أنْفُسَنا في العَمَل. بِبَعْضِ المَكْرِ والحيلَةِ نَسْتَطيعُ الحُصولَ عَلى ما نُريد، نَسْتَغِلُّ عَدَمَ انْتِباهِ الآخَرينَ ونَغْزوهُم فَجْأةً ونأخُذُ ما نُريد. لَقَدْ فَقَدْنا الكَثيرَ مِنْ سُكّانِ الجَزيرَة، لَكِنْ يَجِبُ دَفْعُ ثَمَنٍ ما».

« لَقَدْ زُرْتُم جَزيرَةَ النُّمورِ لِتَنْصِبوا لَنا فَخًّا؟!»، قالَ «مُعين».

« يا لَكَ مِنْ طِفْلٍ ذَكِيٍّ، صَحيح! أَلَمْ أقُلْ لَكَ إنَّ الشَّجاعَةَ لَيْسَتْ أهَمَّ مِنَ المَكْرِ والحيلَة؟»، أجابَ نائِبُ زَعيمِ الثَّعالِب.

– لِمَ ماتَتْ أشْجارُ جَزيرَتِكُم؟ لِمَ أصْبَحَتْ أرْضُكُم قاحِلَةً؟ أَلَمْ تَبْحَثوا عَنِ السَّبَب؟

– إنَّها كَذَلِكَ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ.

– لِمَ لا تُحاوِلونَ زِراعَةَ أشْجارٍ جَديدَةٍ؟ أُحْرُثوا الأرْضَ واقْطَعوا الأشْجارَ اليابِسَةَ واسْتَفيدوا مِنْ أخْشابِها. لِمَ تُفَكِّرونَ دائِمًا بِالسَّرِقَة؟

قَهْقَهَ الزَّعيمُ وقال: «اِسْتَمِعوا إلَيْه، هاهاها، يُريدُنا أنْ نَقْطَعَ الأشْجارَ ونَحْرُثَ الأرْضَ ثُمَّ نَزْرَع، ثُمَّ نَنْتَظِرُ أعْوامًا حَتّى نَحْصِدَ المَحْصول. يا لَكَ مِنْ عَبْقَرِيٍّ!».

في هَذِهِ الأثْناء، رَسَتْ سَفينَتانِ مِنْ جَزيرَةِ النُّمورِ والسَّلاحِفِ عَلى شاطِئِ جَزيرَةِ الثَّعالِب.

شَعَرَ زَعيمُ الثَّعالِبِ بِضُعْفِ مَوْقِفِه، فَقالَ بِمَكْرٍ: «أهْلًا بِكُم في جَزيرَتِنا، لا بُدَّ أنَّ ثِمارَنا قَدْ أعْجَبَتْكُم وأتَيْتُم لِتَناوُلِ المَزيدِ مِنْها!».

نَظَرَ زَعيمُ النُّمورِ بِغَضَبٍ، وقال: «أيْنَ الأطْفال؟ لَقَدْ أخْبَرَنا البَبَّغاءُ أنَّهُم مَسْجونونَ لَدَيْكُم!».

ضَحِكَ زَعيمُ الثَّعالِب، وقال: «ماذا؟ مَسْجونون؟ لَقَدْ أتوا بَحْثًا عَنِ المُغامَرَة، وأثْناءَ تَدْريبِهِم لَنا، أظْهَرْنا مَهارَةً كَبيرَةً، واسْتَطَعْنا حَبْسَهُم. إنَّها مُجَرَّدُ لُعْبَةٍ!».

« هَذا لَيْسَ صَحيحًا، إنَّهُ يَكْذِب»، قالَ «سالِم».

قَهْقَهَ الزَّعيمُ الماكِر، وقال: «لَقَدْ خافوا كَثيرًا، أتَيْتُم في الوَقْتِ المُناسِبِ لِتأخُذوهُم، إنَّهُم جُبَناءُ ولا يَتَحَمَّلونَ المَواقِفَ الصَّعْبَة!».

نَزِلَ الأَطْفالُ مِنَ السِّجْنِ المُعَلَّقِ وذَهَبوا بِرِفْقَةِ سُكّانِ جَزيرَتَيِ النُّمورِ والسَّلاحِف، وأبْحَروا إلى جَزيرَةِ السَّلاحِف.

اسْتَقْبَلَهُم زَعيمُ الجَزيرَةِ الَّذي كانَ يَضَعُ إشارَةَ السُّلَحْفاةِ عَلى رَأْسِه، وقالَ مُرَحِّبًا: «أهْلًا بِكُم في جَزيرَتِنا».

اسْتَغْرَبَ الأَطْفالُ كَيْفَ يَعيشُ سُكّانُ جَزيرَةِ الثَّعالِبِ وهُم لا يَزْرَعونَ شَيْئًا، ولا يَعْمَلونَ ولا يُمارِسونَ أيَّ مِهْنَةٍ، إنَّهُم يَسْرِقونَ فَقَطْ كالقَراصِنَة.

نَعَم، إنَّهُم كَذَلِك، لَمْ نَفْلَحْ في تَغْييرِ عاداتِهِم السَّيِّئَة، لَقَد اعْتادوا الأَفْعالَ الماكِرَةَ وهُم لا يُحِبّونَ العَمَلَ وبَذْلَ الجُهْد.

في هَذِهِ الأَثْناء، فُوجِئَ الجَميعُ بِحُضورِ أَحَدِ سُكّانِ جَزيرَةِ الثَّعالِبِ عَلى مَتْنِ قارِبٍ صَغيرٍ، وقال: «نُريدُ مُساعَدَتَكُم في إقْناعِ السُّكّانِ بِضَرورَةِ زِراعَةِ الأَرْض، نُريدُ بُذورًا لِزَرْعِها في أَرْضِنا، هَلْ تُساعِدونَنا؟».

«طَبْعًا، لَكِنْ هَلْ سَيَسْمَحُ زَعيمُكُم بِذَلِك؟ إنَّهُ لا يَقْبَل!»، سَألَ زَعيمُ السَّلاحِف.

– لَقَدْ ماتَ زَعيمُنا اليَوْم، ونُريدُ أنْ نَزْرَعَ جَزيرَتَنا!

– ماذا؟ ماتَ زَعيمُكُم؟

– نَعَم، أَرْجو أنْ تُساعِدونا في هَذِهِ المِحْنَة.

أبْحَرَ رِجالُ النُّمورِ والسَّلاحِفِ مَعَ الأطْفالِ نَحْوَ جَزيرَةِ الثَّعالِب، وعِنْدَما وَصَلوا لَمْ يَجِدوا أحَدًا. أمّا المُحْتالُ الَّذي أخْبَرَهُم القِصَّةَ الزّائِفَة، فَقَدْ فَرَّ بِقارِبِهِ خِلْسَةً.

فَجْأةً، شَبَّ حَريقٌ هائِلٌ في سَفينَتَي النُّمورِ والسَّلاحِف. نَعَم، لَقَدْ أحْرَقَ المُحْتالُ السَّفينَتَيْن، ثُمَّ لاذَ بِالفَرار.

« يا لَهُم مِنْ مُحْتالينَ جُبَناء!»، قالَ أحَدُ رِجالِ السَّلاحِف.

« السَّفينَتانِ تَحْتَرِقان، يَجِبُ إطْفاءُ النّيران!

لَمْ يَسْتَطِعْ أحَدٌ إخْمادَ النّيران، وغَرِقَتِ السَّفينتانِ في البَحْر»، تَحَدَّثَ أحَدُ رِجالِ النُّمور.

دَبَّ الأسى والحُزْنُ في النُّفوس، وقالَ أحَدُهُم: «كَيْفَ سَنَعود؟».

« أيْنَ اخْتَفى سُكّانُ هَذِهِ الجَزيرَة؟»، سَألَ آخَر.

هُنا، حَطَّ البَبَّغاءُ الوَفِيّ، وقال: «لَقَدْ غَزا المُحْتالونَ جَزيرَةَ السَّلاحِف، ونَهَبوا خَيْراتِها وبُيوتَها وثِمارَها، إنَّهُم فيها الآن، لَقَدْ أحْرَقوا أيْضًا السُّفُنَ كُلَّها».

جَلَسَ الجَميعُ لِلتَّفْكيرِ في هَذِهِ المُصيبَةِ الكَبيرَة.

« عَلَيْنا أنْ نَسْبَحَ نَحْوَهُم»، قالَ «رامِز».

« لَكِنَّها مَسافَةٌ بَعيدَةٌ، سَتخورُ قِوانا بِسُرْعَةٍ»، رَدَّ «مُعين».

– يَجِبُ أنْ نُفَكِّرَ بِحَلٍّ آخَر. أُنْظُروا إلى هَذِهِ الأشْجارِ اليابِسَة، نَقْطَعُها ونَصْنَعُ قَوارِبَ صَغيرَةً ونُبْحِرُ نَحْوَ جَزيرَةِ السَّلاحِف.

– إنّهُ حَلٌّ مُناسِبٌ.

وهَكَذا، تَعاوَنَ الجَميعُ وباشَروا بِالعَمَلِ المُضْني. لَمْ يَكُنْ صُنْعُ القَوارِبِ سَهْلًا، فَالأخْشابُ يابِسَةٌ وهَشَّةٌ*، أمّا الحِبالُ فَكانَ مِنَ السَّهْلِ الحُصولُ عَلَيْها في هَذِهِ الجَزيرَة، لِأنَّ سُكّانَها يَحْتاجونَ إلى الكَثيرِ مِنْها في سَرِقاتِهِم المُخْتَلِفَة.

اصْطادَ البَعْضُ الأسْماكَ لِتَحْضيرِ الطَّعام، وعَثَرَ البَعْضُ الآخَرُ عَلى قَليلٍ مِنَ الثِّمار.

في نِهايَةِ العَمَل، اسْتَطاعَ الرِّجال، بِالتَّعاوُنِ مَعَ الأطْفالِ أنْ يَصْنَعوا سِتَّةَ قَوارِب، اسْتَقَلّوها، وأبْحَروا نَحْوَ جَزيرَةِ السَّلاحِف.

شَعَرَ الثَّعالِبُ بِقُدومِ القَوارِب، فَاسْتَقَلّوا سَفينَتَهُم وهاجَموا بِعُنْفٍ. دارَتْ مَعْرَكَةٌ كَبيرَةٌ انْتَصَرَ فيها رِجالُ النُّمورِ والسَّلاحِفِ والأطْفالُ المُغامِرون. وفي نِهايَةِ المَعْرَكَة، أُسِرَ المُحْتالون.

*هَشَّةٌ: سَريعَةُ الكَسْر.

قالَ زَعيمُ الحُكَماء: «يا لَكُم مِنْ مُحْتالين، أحْرَقْتُم سُفُنَنا ونَهَبْتُم خَيْراتِنا، تَسْتَحِقّونَ عُقوبَةً قاسِيَةً. يَجِبُ أنْ نَسْجُنَهُم إلى الأبَد».

« هَذا لَيْسَ حَلًّا مُناسِبًا. أقْتَرِحُ أنْ نُجْبِرَهُم عَلى بِناءِ سُفُنٍ بَدَلًا مِنَ الَّتي أحْرَقوها»، أجابَ زَعيمُ السَّلاحِف.

– نَعَم، هَذا حَلٌّ جَيِّدٌ.

– إنَّها العُقوبَةُ المُناسِبَةُ حَقًّا لِأنَّهُم لا يُحِبّونَ العَمَل. أقْتَرِحُ أنْ نُجْبِرَهُم أيْضًا عَلى حَرْثِ أرْضِ جَزيرَتِهِم وَزَرْعِها.

– حَلٌّ مُناسِبٌ أيْضًا.

وهَكَذا، أُجْبِرَ سُكّانُ جَزيرَةِ الثَّعالِبِ عِلى بِناءِ سُفُنٍ جَديدَةٍ، وعَلى اسْتِصْلاحِ أرْضِ جَزيرَتِهِم، وزَرَعوها بِأنْواعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الأشْجارِ والنَّباتات، وتَغَيَّرَتْ حَياتُهُم، لَكِنْ هَلْ تَغَيَّرَتْ عاداتُهُم؟ لِلأسَف، لا.

ثارَ البُرْكانُ في جَزيرَةِ الثَّعالِب، وَقَضى عَلى قِسْمٍ كَبيرٍ مِنَ الأرْضِ الخَضْراء، فَاضْطُرَّ قِسْمٌ مِنْهُم لِلهَرَبِ إلى جَزيرَةِ النُّمور. اسْتَقْبَلَهُم السُّكّانُ بِرَحابَةِ صَدْرٍ وَقَدَّموا لَهُم العَوْنَ في مِحْنَتِهِم.

بَقِيَ بَعْضُهُم في الجَزيرَة، وتابَعَ العَمَلَ في الأَرْضِ البَعيدَةِ عَنِ البُرْكان.

حاوَلَ الثَّعالِبُ المُهاجِرونَ أنْ يَكيدوا المَكائِدَ بَيْنَ أفْرادِ جَزيرَةِ النُّمورِ تارَةً، وبَيْنَ النُّمورِ والسَّلاحِفِ تارَةً أُخْرى، وفي النِّهايَةِ لَمْ يَنْجَحوا.

نَشأتْ صَداقَةٌ كَبيرَةٌ بَيْنَ «رامِز» و«ثَعْلوب الصَّغير»، ودارَ حَديثٌ بَيْنَهُما عَنِ الجَزيرَةِ المَنْكوبَة.

– أوَدُّ أنْ أعرِفَ يا «ثَعْلوب» لِماذا يُحاوِلُ سُكَّانَ جَزيرَتِكُم دائِمًا الاعْتِداءَ عَلى جَزيرَتَيِ السَّلاحِفِ والنُّمور، إنَّهُم طَيِّبون.

– لا أدْري يا «رامِز»، لَكِنَّني سَمِعْتُ مَرَّةً مِنْ أبي قِصَّةً قَديمَةً.

– قِصَّةٌ قَديمةٌ؟!

– نَعَم.

– قُصَّها عَلَيّ.

– قالَ أبي إنَّ سُكّانَ جَزيرَةِ النُّمورِ قَدْ طَرَدوا سُكّانَ جَزيرَتِنا إلى مَكانِهِم الحالِيّ.

– ماذا؟ طَرَدوهُم؟

– نَعَم، هَكَذا قالَ أبي، ومُنْذُ ذَلِكَ الزَّمَنِ البَعيدِ نَشَأَتْ عَداوَةٌ بَيْنَنا وبَيْنَ النُّمورِ والسَّلاحِف.

– ما سَبَبُ طَرْدِكُم؟

– قالَ أبي إنَّ السَّبَبَ هُوَ أنَّ النُّمورَ والسَّلاحِفَ يَكْرَهونَنا ولا يَتَمَنّونَ بَقاءَنا مَعَهُم.

– اعْذُرْني يا «ثَعْلوب»، لَوْ كانوا يَكْرَهونَكُم حَقًّا لَما ساعَدوكُم في مِحْنَتِكُم واسْتَقْبَلوكُم عَلى أرْضِ هَذِهِ الجَزيرَةِ بَعْدَ كُلِّ ما بَدَرَ مِنْ أهْلِ جَزيرَتِكُم.

– أنْتَ مُحِقٌّ يا «رامِز»، لَكِنَّ أبي ما زالَ يَظُنُّ أنَّهُم يُفَكِّرونَ في إبْعادِنا يَوْمًا ما.

– أعْتَقِدُ أنَّ هُناكَ سَبَبًا آخَرَ يَدْفَعُ أباكَ إلى هَذا الاعْتِقادِ الخاطِئ.

– لَقَدْ فَكَّرْتُ في هَذا الأمْرِ كَثيرًا، وأظُنُّ أنَّ السَّبَبَ الحَقيقِيَّ يَكْمُنُ في طِباعِنا السَّيِّئَة!

– نَعَم، هَذا هُوَ السَّبَب، إنَّ كُلَّ ما يُفَكِّرُ فيهِ سُكّانُ جَزيرَتِكُم السَّلْبُ والنَّهْبُ* والمَكْر، إنَّكُم أذْكِياء، لَكِنَّ ذَكاءَكُم يَضُرُّكُم ولا يُفيدُكُم.

– نَحْنُ الصِّغارُ لا نَسْتَطيعُ فِعْلَ شَيْءٍ، الكِبارُ في جَزيرَتِنا لا يَسْمَعونَ رَأْيَنا.

– وهَلْ حاوَلْتُم فِعْلَ شَيْءٍ ما؟

– نَعَم، حاوَلْنا حَرْثَ قِسْمٍ مِنْ أرْضِ جَزيرَتِنا الجَرْداءِ لَكِنَّهُم وَبَّخونا عِنْدَما عَرَضْنا عَلَيْهِم الأمْر.

– ماذا؟ وَبَّخوكُم؟

– نَعَم، وقالوا إنَّهُ يَجِبُ أنْ نُفَكِّرَ فَقَطْ بِما يُمْلونَهُ عَلَيْنا.

– في بِلادِنا، يَحْدُثُ العَكْسُ تَمامًا. نُشَجِّعُ الفَلّاحينَ عَلى زِراعَةِ الأرْض، لا بَلْ نُساعِدُهُم في ذَلِك.

– قُمْنا خِلْسَةً بِزَرْعِ قِسْمٍ مِنَ الأرْضِ في زاوِيَةٍ مَهْجورَةٍ.

– نَعَم، لَقَدْ رأيْتُها عِنْدَما بَحَثْنا عَنِ الطَّعامِ في جَزيرَتِكُم.

– إنَّها هِي، زَرَعْناها ثِمارًا تَنْبُتُ عَلى الأرْضِ كَيْ لا يَكْتَشِفوا مَكانَها.

– إنَّهُم قُساة، الزَّرْعُ يَدُرُّ* خَيْرًا وَفيرًا.

*السَّلْب والنَّهب: كُلُّ ما سُرِق.

*يَدُرّ: يَكْثُر.

– لَقَدْ فَكَّرْنا في أنْ نَبوحَ لَهُم بِسِرِّ الأرْضِ المَزْروعَة، لَكِنَّنا تَراجَعْنا بِسَبَبِ خَوْفِنا مِنْ عِقابِهِم.

– إنَّها عُقولٌ صَمّاء، لا تَسْمَعُ صَوْتًا غَيْرَ صَوْتِ الشَّرّ.

– ماذا نَفْعَلُ نَحْنُ الصِّغارُ في هَذِهِ الظُّروفِ الصَّعْبة؟ كَيْفَ يُمْكِنُنا تَغْييرُ حَياتِنا؟ نَحْنُ نُحِبُّ الخَيْرَ ونَكْرَهُ الشَّرَّ والبَغْضاء.

– أُنْظُرْ يا «ثَعْلوب»، لَقَدْ بَقِيَ قِسْمٌ مِنْكُم في جَزيرَةِ الثَّعالِبِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ مَأْساةِ البُرْكان. لَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَياتُهُم، إنَّهُم يُحِبّونَ الخَيْرَ وَقَدْ تَخَلّوا عَنْ حَياةِ المَكْرِ والشَّرّ.

أمّا أنْتُم المُهاجِرون، فَما زالَ قِسْمٌ كَبيرٌ مِنْكُم يُحاوِلُ بَثَّ الحِقْدِ وَالكَراهِيَةِ بَيْنَ سُكّانِ هَذِهِ الجَزيرَة. يَجِبُ أنْ تَتَغَيَّرَ حَياتُكُم كَما تَغَيَّرَتْ حَياةُ أقارِبِكُم.

– نَعَم، هَذا صَحيح، لَكِنْ كَيْف؟

– يَجِبُ أنْ تَشْعُروا بِلَذَّةِ العَمَل.

– لَذَّةُ العَمَل؟!

– نَعَم، إنَّهُ شُعورٌ مُشابِهٌ لِما شَعَرْتُم بِهِ عِنْدَما أكَلْتُم مِنْ ثِمارِ أرْضِكُم المَزْروعَةِ في الخَفاء.

– نَعَم، يا لَهُ مِنْ إحْساسٍ رائِعٍ، الصِّغارُ الَّذينَ شارَكوا بِالزِّراعَةِ يَشْعُرونَ بِذَلِك، لَكِنَّ الكِبار...

– هَذا ما يَجِبُ أنْ نَعْمَلَ عَلَيْه، يَجِبُ أنْ يَتَعَلَّموا مِنْكُم، أنْتُم الصِّغار.

– كَيْفَ ذَلِك؟ إنَّهُم يَرْفُضونَ مُجَرَّدَ التَّفْكيرِ بِذَلِك!

– سَيَشْعُرونَ بِذَلِكَ عِنْدَما يَنالونَ مُكافَأةً عَلى عَمَلِهِم.

– مُكافَأة؟!

– نَعَم، مُكافَأة.

– وما هِيَ هَذِهِ المُكافَأة؟

– لا أدْري، سأطْرَحُ الأمْرَ عَلى الأطْفال.

– هَلْ تَعْتَقِدُ أنَّ ذَلِكَ سَيُغَيِّرُ مِنْ حَياةِ سُكّانِ جَزيرَتِنا؟

– نَعَم، هَذا أكيد.

انْتَهى حَديثُ «رامِز» و«ثَعْلوب»، وتَوَجَّها مَعًا إلى الأطْفالِ المُجْتَمِعينَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ العِمْلاقَة.

قالَ «رامِز»: «أوَدُّ أنْ أطْرَحَ عَلَيْكُم مُشْكِلَةَ المُهاجِرينَ الثَّعالِب».

– إنَّها مُشْكِلَةٌ دائِمَةٌ، إنَّهُم يُضْمُرونَ* الشَّرَّ دائِمًا.

– هَذا ما نُريدُ إيجادَ حَلٍّ لَه.

– كَيْفَ يُمْكِنُنا تَغْييرُ تَفْكيرِهِم؟

– إنَّها مَهَمَّةٌ صَعْبَةٌ جِدًّا.

طَرَحَ «رامِز» فِكْرَةَ المُكافَأة، ووافَقَ الأطْفالُ ثُمَّ تَوَجَّهوا إلى زَعيمِ النُّمورِ لِعَرْضِ الفِكْرَةِ عَلَيْه.

طَلَبَ الزَّعيمُ اجْتِماعًا عامًّا، وعَرَضَ الفِكْرَةَ عَلى الجَميع. فَسَخِرَ المُهاجِرونَ الثَّعالِبُ مِنَ الاقْتِراحِ الجَديد، وقالَ أحَدُهُم: «مُكافَأة؟ نَحْنُ لَنْ نُمارِسَ أيَّ عَمَلٍ. نُريدُ العَوْدَةَ إلى جَزيرَتِنا، جَزيرَةِالثَّعالِب. يَبْدو أنَّنا أصْبَحْنا عِبْئًا عَلَيْكُم، وتُريدونَ التَّخَلُّصَ مِنّا».

– لَسْتُم عِبْئًا، وَلَكِنَّكُم لَمْ تَتَخَلّوا عَنْ عاداتِكُم السَّيِّئَة.

– اِسْمَحوا لَنا بِالمُغادَرَة.

يُحاوِلُ الجَميعُ إقْناعَ الثَّعالِبِ بِالبَقاءِ وتَجْرُبَةِ لَذَّةِ العَمَلِ ومُكافَأتِه، لَكِنَّهُم يَرْفُضونَ ويُصِرُّونَ عَلى الرَّحيل.

*ضَمَرَ: نَوى

فَجْأةً، سَمِعَ الأطْفالُ نِداءَ آلَةِ الزَّمَن: «لَقَدْ حانَ وَقْتُ العَوْدَة، سَتُقْلِعُ الآلَةُ بَعْدَ خَمْسِ دَقائِق!».

وَدَّعَ «رامِز» صَديقَهُ «ثَعْلوب» قائِلًا: «اعْذُرْني يا «ثَعْلوب»، يَجِبُ أنْ نَذْهَبَ الآن، آمَلُ أنْ تَتَحَسَّنَ أحْوالُكُم، رُبَّما نَعودُ في رِحْلَةٍ أخْرى».

أسْرَعَ الأطْفالُ نَحْوَ آلَةِ الزَّمَنِ ثُمَّ صَعِدوا إلَيْها. وبَعْدَ دَقائِق، أقْلَعَتِ الآلَةُ وأبْحَرَتْ عَبْرَ الزَّمَنِ لِتَصِلَ إلى مَدينَةِ الألْعاب.

نَزِلَ الأصْدِقاءُ مِنَ الآلَةِ وبَقِيَ «رامِز» في داخِلِها. اسْتَغْرَبَ الأطْفالُ وصَرَخَتْ «نَجْلاء»: «اِنْزِلْ يا «رامِز»، هَيّا». فَلَمْ تَسْمَعْ رَدًّا مِنْ «رامِز»، وقَرَّرَتِ الصُّعودَ إلى الآلَة.

– ماذا تَفْعَلُ يا «رامِز»؟ يَجِبُ أنْ تَنْزِلَ الآن.

– لَقَدْ وَصَلَتْني هَذِهِ الرِّسالَةُ مِنْ «ثَعْلوب»!

– ماذا تَقول؟ رِسالَةٌ مِنْ «ثَعْلوب»!

– نَعَم، اُنْظُري، إنَّها تَظْهَرُ عَلى الشّاشَة!

في هَذِهِ الأثْناء، صَعِدَ باقي الأصْدِقاء إلى الآلَة، وقَرَأَتْ «نَجْلاء» الرِّسالَة:

«مَرْحَبًا صَديقي «رامِز»، أُخاطِبُكَ مِنَ الزَّمَنِ السَّحيق*. أَكْتُبُ لَكَ هَذِهِ الرِّسالَةَ كَيْ أُخْبِرَكَ أَنَّني أَنْتَظِرُ عَوْدَتَكَ إلى جُزُرِنا الضّائِعة. لَقَدْ مَضَى زَمَنٌ طَويلٌ مُنْذُ زِيارَتِكَ الأولى!

تَحَسَّنَتْ أَحْوالُنا بَعْدَ مُغادَرَتِكُم، وأَبْحَرَ المُهاجِرونَ إلى جَزيرَتِهِم. وقَدْ نَشَبَ صِراعٌ حادٌّ بَيْنَ الثَّعالِبِ المُهاجِرينَ والَّذينَ ظَلّوا في الجَزيرَةِ بَعْدَ ثَوْرَةِ البُرْكان. ثارَ البُرْكانُ مَرَّةً أُخْرى ودَمَّرَ جُزْءًا كَبيرًا مِنَ الجَزيرَة. وقالَ المُهاجِرون: «ما فائِدَةُ الزِّراعَةِ وبِناءِ البُيوتِ والعَيْشِ هُنا إذا كانَ البُرْكانُ سَيُدَمِّرُنا. يَجِبُ أَنْ نَغْزُوَ جَزيرَةَ السَّلاحِف.

في هَذِهِ الأَثْناء، كانَ الَّذينَ ظَلّوا في الجَزيرَةِ قَدْ بَنوا بَعْضَ السُّفُنِ بَعْدَما تَعَلَّموا ذَلِكَ سابِقًا. لَكِنَّ المُهاجِرينَ انْتَصَروا عَلى المُسالِمينَ ورَكِبوا السُّفُنَ لِغَزْوِ السَّلاحِف.

أَخْبَرَ البَبَّغاءُ سُكّانَ جَزيرَةِ السَّلاحِفِ فاحْتاطوا لِلأَمْر، وساعَدَهُم النُّمورُ في الدِّفاعِ عَنِ الجَزيرَة، وعادَ الثَّعالِبُ فاشِلينَ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلّوا الجَزيرَة. ثُمَّ دارَ صِراعٌ حادٌّ مَرَّةً أُخْرى مَعَ الثَّعالِبِ المُسالِمين.

*السَّحيق: البَعيد.

لَمْ يَقْتَنِعِ الأشْرارُ بِوِجْهَةِ نَظَرِ المُسالِمينَ الَّذينَ حاوَلوا إقْناعَهُم بِالحُسْنى: الزِّراعَة، لَذَّةُ العَمَل، السَّلام، الاسْتِمْتاعُ بِالحَياة، لَكِنْ لا حَياةَ لِمَنْ تُنادي.

ضَرَبَتْ عاصِفَةٌ قويَّةٌ جَزيرَةَ النُّمورِ ودَمَّرَتْ قِسْمًا كَبيرًا مِنْها، ودَمَّرَتِ السُّفُنَ أيْضًا. هَبَّتْ جَزيرَةُ السَّلاحِفِ لِلمُساعَدَة، وهُنا اسْتَغَلَّ الثَّعالِبُ الأشْرارُ الفُرْصَةَ وغَزوا جَزيرَةَ السَّلاحِف.

أبْحَرَ الثَّعالِبُ المُسالِمونَ إلى جَزيرَةِ النُّمورِ لِتَقْديمِ المُساعَدَة، وعادَتِ الحَياةُ الطَّبيعِيَّةُ إلى جَزيرَةِ النُّمورِ بَعْدَ فَتْرَةٍ. وفي هَذِهِ الأثْناءِ، اسْتَوْلى الثَّعالِبُ الأشْرارُ عَلى خَيْراتِ السَّلاحِف. وبَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ، تَوَجَّهَ النُّمورُ والسَّلاحِفُ لِمُواجَهَةِ الثَّعالِب، وأخيرًا انْتَصَرَ الخَيْرُ عَلى الشَّرّ.

قَرَّرَ الثَّعالِبُ الأشْرارُ العَوْدَةَ إلى جَزيرَتِهِم، وقَرَّرَ الثَّعالِبُ المُسالِمونَ البَقاءَ في جَزيرَةِ النُّمورِ بِسَبَبِ صُعوبَةِ الحَياةِ مَعَ الأشْرار. شَعَرْتُ مَعَ أقْراني الثَّعالِبِ بِالحَنينِ إلى جَزيرَتِنا، فَهِيَ وَطَنُنا الأصْلِيّ. قَرَّرْنا العَوْدَةَ مَهْما كانَتِ الظُّروف. لَقَدْ عُدنا إلى جَزيرَتِنا وتَحَمَّلْنا الأذى، ثُمَّ مَضَتِ السَّنَواتُ وكَبِرْتُ مَعَ أقْراني وأصْبَحْنا رِجالًا أشِدّاءَ وهَرِمَ الكِبارُ الأشْرار.

صَديقي «رامِز»، لَقَدْ كَبِرْنا نَحْنُ الصِّغارُ وأصْبَحْنا كِبارًا. نَعْشَقُ الخَيْرَ والجَمالَ ونَنْبُذُ الحِقْد. والآنَ تَعيشُ الجُزُرُ الضّائِعَةُ بِسَلامٍ.

«رامِز»، أتَمَنّى أنْ تَزورَنا مَرَّةً أُخْرى» .

صَديقُكَ «ثَعْلوب»

انْتَهَتْ «نَجْلاء» مِنْ قِراءَةِ رِسالَةِ «ثَعْلوب»، ونَظَرَ الأصْدِقاءُ إلى بَعْضِهِم بِدَهْشَةٍ، وقالَ «مُعين»: «هَذا أمْرٌ لا يُصَدَّق، لَقَدْ وَصَلْنا مُنْذُ لَحَظاتٍ، فَكَيْفَ مَرَّ الزَّمَنُ بِهَذِهِ السُّرْعَة؟!».

«نَديم»: «لا تَنْسوا أيُّها الأصْدِقاء أنَّنا عَلى مَتْنِ آلَةِ الزَّمَن!».

وهُنا، صَدَرَ صَوْتٌ مُفاجِئٌ مِنَ الآلَة: «عُذْرًا، يَجِبُ أنْ تُسَدِّدوا ثَمَنَ الرِّحْلَة، لا تَسْتَطيعُ الآلَةُ الإقْلاع!!!».

قالَ «نَديم»: «حَسَنًا، حَسَنًا، هَيّا بِنا يا أصْدِقاء، لَقَدْ تأخَّرْنا كَثيرًا».

وهَكَذا، عادَ الأطْفالُ إلى وَطَنِهِم الأصْلِيِّ بَعْدَ هَذِهِ المُغامَرَةِ المُثيرَة.